الموضوع الروائي

ترتبط روايات الواقعية الإسلامية لدى «نجيب الكيلاني» بالفترة الراهنة أو القريبة منها، ويستشعر القارئ أنها معنية بالحوادث الجارية والقضايا المعاصرة بقصد معالجتها والدوران حولها، وهو ما يوهم أنها قصص إصلاحية أو قصص للتسلية، ولكن الواقع القصصي يعطي القارئ صورة أخرى أكثر عمقاً وأوسع شمولاً، لأنها تتناول الإنسان أو المواطن الذي تضنيه أزمة الحرية، ويقهره فقدان العدل، ويعذبه توحش الفساد.

إن القصص الإصلاحية - كما يقول بعض الباحثين - تكون عادة قصيرة الأجل، لا يكتب لها البقاء، لأنه لابد من أن يأتي يوم تعالج فيه النقائص، وتدرج في سجل النسيان. وكثيراً ما يوفق الكاتب في هزة الحماسة التي تمتلكه، إلى تصوير بعض الحوادث تصويراً حيّاً متحركاً، وإلى تلوين البيئة بألوان صادقة معبرة، وهو بهذا يمهد لقصته سبيل الخلود، فتطوى فكرته الإصلاحية مع الزمن، وتبقى هذه الألوان الفنية الصادقة[1].

ولا يستطيع القارئ أن ينفي عن روايات «نجيب الكيلاني» الصفة الإصلاحية تماماً، فهي صفة متضمنة إلى حدٍ ما في بعضها، ولكنها في الوقت ذاته تحمل

---

(١) محمد يوسف نجم، فن تاقصة، ٢٦ - ٢٧.

عناصر الخلود الفني، لأنها دارت حول موضوعات شبه أزلية في واقعنا العربي الإسلامي (الحرية، العدل، الاستقامة، النهضة..)، من ناحية، وتضمنت حوادث وشخوصاً في صياغة فنية حيّة ذات مستوى عال من الحرفة والأداء من ناحية أخرى.

قد يتوهم القارئ أن القصة التي يرويها نجيب الكيلاني مجرد حادثة ينسج حولها بعض الأبعاد التي توحي بآنية الحادثة، وتبشر بتلاشيها أو تلاشي تأثيرها بعد قراءتها، ولكن الدخول إلى أعماق القصة، يكشف العكس، ويبشر بعالم قصصي مليء بالحياة والحركة..

إن رواية «اعترافات عبد المتجلي» مثلاً تبدأ بداية مشوقة مثيرة، من خلال حادثة طريفة غريبة، تتعلق بسرقة ونش ضخم، كان يستخدم في مشروع إنشاء مترو الأنفاق بالقاهرة وأن هناك أجهزة مسؤولة يُفْتَرض أنها تتولى معالجة الموضوع، إلا أن الشاب عبد المتجلي يأخذ على عاتقه عملية البحث عن الونش للعثور عليه..

«هذه كارثة كبرى بكل المقاييس، الحادثة التي أعلن عنها حقيقة.. نعم حقيقة تفقأ عين الشمس، والناس يضحكون، شر البلية ما يضحك».

ويأخذ البطل في المقارنة بين سرقة الونش الضخم من

ميدان عام شهير بمدينة القاهرة، لا تنقطع فيه حركة السير ولا الأجهزة الأمنية، وسرقة الأشياء الأخرى من الجيوب والدور، وسرقة الأضواء والشهرة والسلطة والانتخابات.. وهذا النوع من السرقة لا يثير الغرابة.. أما سرقة الونش فهي المثيرة والغريبة، وقد جعلت «عبد المتجلي القصاص» يقلب حياته رأساً على عقب ويحاول البحث عن الونش وعمن سرقوه:

«كيف يسرقون الونش؟؟ إن ذلك غاية الوقاحة والفجر والاستهتار»[1].

إن الحادثة بهذا الشكل تبدو إلى حد ما موضوعاً آنياً، ينتهي بصورة وأخرى عند العثور على الونش، أو عدم العثور عليه، ولكن الرواية من عنوانها، حتى خاتمتها، بل خاتمة الرواية الثانية - المكملة لها - وهي «امرأة عبد المتجلي»، تعطينا العديد من الدلالات والمعاني العميقة والمطردة، التي تتصل بالإنسان الباحث عن الحياة الحرة العادلة المستقيمة، وسط طوفان من القهر والظلم والانحراف تصنعه النفوس الخبيثة والقلوب المتحجرة والطبيعة البشرية الملوثة.

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٥.

والسؤال الذي يجبهنا منذ البداية: هل نجد في اسم «عبد المتجلي» دلالة توصي بالعبودية لمن يتجلّى أو يظهر على البشر، ويرى أعمال العباد بخيرها وشرها، مما يعني أنه وحده الأحق بالعبودية دون غيره ممن تألهوا، وتجاوزوا حدود «الإنسانية» إلى تخوم «الألوهية»؟.

وهل يمكن إذاً أن نرى في الاسم المركب «عبد المتجلي» ودلالة العبودية لمن يملك مصائر العباد، ضرورة التحرر من الرق البشري وجبروت العباد «المتألّهين» وقيودهم، وهو ما حاول بطل الرواية أن يكونه على امتداد رحلته الواقعية والفنية؟.

أم إن اسم «عبد المتجلي» لا يعدو أن يكون مجرد اسم، اختاره الكاتب ليمثل نوعاً من الأسماء النادرة أو المتفردة التي لا يتسمّى بها الناس إلا في حالات قليلة؟.

أياً كان الأمر، فإن «عبد المتجلي» الاسم والبطل، يقودنا إلى تجربة مثيرة في مواجهة الواقع، والكشف عن صراع النفس البشرية بين الخير والشر، ومدى قدرة الإنسان ذي الفطرة السوية على تحمل المحن والصبر عليها حرصاً على حريته وكرامته الإنسانية.

ويلاحظ أن كلمة «اعترافات» في عنوان الرواية - اعترافات عبد المتجلي - لا تعني الدلالة الحرفية للاعترافات، فالبطل لا يعترف بشيء، ولا يتحدث عما

جرى له، ولكن الكاتب أو الراوي يتولى بالنيابة عنه حكاية قصته مذ خرج من قريته يبث عن الونش المسروق حتى عودته مع امرأته التي تزوجها في القاهرة.. ثم امتدت الحكاية حتى مقتل هذه المرأة في نهاية الرواية الانية المكملة - امرأة عبد المتجلي - ولعل الكاتب كان يقصد ما أدلى به عبد المتجلي من أقوال، أو ما طُلب منه الإدلاء به أمام أجهزة الأمن عندما قبضت عليه، ولكن هذه الأقوال لا تمثل اعترافات ذات هيمنة على الموضوع الروائي حتى تصير عنواناً للرواية.

وفي كل الأحوال، فإن العنوان كما ورد على غلاف الرواية قد لا يعبر تماماً عن مضمونها، ولعله لو اقتصر على اسم البطل وحده (عبد المتجلي)، لكان أكثر انطباعاً على مضمونها وفحواه، وأكثر اتساقاً مع الدلالات الواقعية والفنية للرواية.

وبالمثل يمكن القول، إن عنوان الرواية الثانية «امرأة عبد المتجلي» قد يعبر عنه اسم البطل وحده (عبد المتجلي)، فهو لم يزل محور الموضوع الروائي وعمدته، وإن كان لامرأته نصيب كبير فيه، ويعزز هذا ما قاله لي المؤلف ذات مرة: «إن هناك جزءاً ثالثاً سيكون بعنوان «هجرة عبد المتجلي»، مما يعني أن الثلاثية تدور حول محور عبد المتجلي، الذي كان ينبغي أن يكون اسماً للرواية بأجزائها

الثلاثة، وكان يمكن أن يطلق على الرواية الأولى، الجزء الأول، والثانية الجزء الثاني، والثالثة التي سيكتبها المؤلف: الجزء الثالث.

وأياً كان الأمر، فإن دلالة العنوان في الرواية الثالثة موضوع الدراسة، أعني «قضية أبو الفتوح الشرقاوي» تنسجم مع دلالاتها، وكذلك الرواية الرابعة «ملكة العنب».

بيد أن روايات الكيلاني هذه، تشدنا في مستوى من مستوياتها الأساسية إلى قضايا طارئة على المجتمع، وغريبة عليه، أو لم يكن له بها عهد من قبل.. فعبد المتجلي يطلعنا على قضية خطيرة صنعها الفساد المتوحش، وهي تجريف الأرض الزراعية لصناعة الطوب من ترابها، مما يعني تخريب الزراعة وتخريب الحياة ذاته، ويطلعنا على قضايا أخرى خطيرة منها انقلاب القرية المصرية شكلاً ومضموناً، والتطرف الانحلالي والتطرف الديني والرشوة وفساد الإدارة والظلم الاجتماعي والسياسي... وأبو الفتوح الشرقاوي يطرح قضية الكذب وإدمانه حتى صار شارة العصر وعلامته على أكثر من مستوى، بالإضافة إلى الفساد والانتهازية والمحسوبية وعفن الطبقات العليا، والغلاء، والفقر وتجار السوق السوداء وانتشار الأمراض المتوطنة، وتثير رواية «ملكة العنب» قضية ترك زراعة المحاصيل المعتادة من قمح وشعير وذرة وأرز، وزراعة العنب

بدلاً منها، مما يعني أن يجوع الشعب ويمد يده للغرباء كي يستورد لقمته، وإن حقق زراع العنب مكاسب طائلة.

تعبر هذه القضايا في مستواها هذا، عن وعي الكاتب بما يجري في مجتمعه، وشوقه إلى أن يبرأ من آثارها الضارة، ومضاعفاتها المزعجة، وهو حين يقص حوادثها، فليس غرضه - كما يقول «موباسان» أن يسلينا أو يثير شعورنا، بل هدفه أن يجبرنا على أن نفكر ونفهم المغزى العميق الخفي للحوادث، وفنّه لا يتجلى في المؤثرات العاطفية أو في مجال اللغة أو البداية المشوقة. أو الصراع المؤثر بل تكمن قدرته في حشد التفاصيل الدقيقة المتكررة التي ستعمل على إبراز المغزى الجوهري «وقوله (ستعمل) يعني أن مغزى القصة لن يتضح إلا بعد الانتهاء من قراءتها بحرص وأناة. حتى نستطيع نحن أن نساعد الأديب على استكمال الصورة المراد ايصالها إلينا»[1].

وفعلاً، فإن القارئ لا يستطيع أن يصل إلى المغزى العام إلا بعد القراءة الحريصة المتأتية، وأمام الحشد - بل الحشود الضخمة - من التفاصيل الدقيقة، لا بد للقارئ أن يستنتج قضايا رئيسية مهمة وأساسية في الصراع

---

(١) طه محمود طه، القصة في الأدب الانجليزي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م ص ١٤١.

الإنساني بين الخير والشر، من خلال التقاط المادة اللافتة وغير العادية، التي تعد المفتاح الحقيقي للقراءة النقدية كما يرى «روجر هينكلي»[٢].

وتبدو حرية الفكر من أبرز هذه القضايا، فهي عنوان «الحرية الإنسانية» والطريق إلى التقدم الشامل: روحياً ومادياً، وقد تردد الحديث عنها في ثنايا الروايات وبخاصة روايتي عبد المتجلي (اعترافات عبد المتجلي، امرأة عبد المتجلي)، وترتبط الفكر بأبعاد متعددة تعني حرية الإنسان وصراعه مع قوى القهر والظلام التي تؤمن بالقمع، وسيلة لاخضاع الناس وتسييرهم، مهما كانت نتائج هذا القمع متناقضة مع الفطرة الإنسانية والقوانين والقيم والأعراف، فضلاً عن الأديان السماوية.

ويبرز السياق الروائي مدى خطورة الرأي أو حرية الفكر في مجتمع القمع، لدرجة أن قضايا المخدرات تبدو أقل خطراً من قضايا الرأي، فالمتهم في الأولى يجد فرصة الإفلات من العقاب والتمتع بالبراءة، أما قضايا الرأي، فصاحبها متهم دائماً، وتلاحقه التهمة أينما توجه، وهو على قائمة المطلوبين باستمرار، وها هو الحاج إسماعيل

---

(٢) روجر، ب. هينكلي، وصلاح رزق، في قراءة الراوية: تصور منهجي ودراسات تطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٨٨، ص ٣٧.

يعلق على ما أثاره عبد المتجلي وأهل القرية من آراء فيقول:

«أصبح الكلام من بعض الأمور - أشد خطراً من المخدرات.. أنا شخصياً إذا خيرت بين قضية سياسية وقضية مخدرات لاخترت الأخيرة» لماذا؟ لأن قضايا المخدرات يستطيع المحامي فيها أن يصول ويجول، فيجد الثغرات، ويبطل الأدلة، ويربك الشهود، وكثيراً ما يحصل على البراءة.. أما في قضايا السياسة فالمتهم مجرم، وإن ثبتت براءته.. هل سمعتم عن القوائم السوداء.. إنها شيء آخر غير السوق السوداء.. إذا لم يكفّ أهل قريتنا عن الاتجار في الكلام فسوف تسحقهم الدبابات، وتدكهم الطائرات، وسيصيبهم ما أصاب أهل كرداسة في عام ١٩٦٥، أي قبل النكسة بعامين...»[١].

إن الفكر أو الكلام أو حرية الرأي، صارت مرادفاً للعناء، وعدم المنفعة، ليس بالنسبة للقوى القمعية وحدها، ولكن لقطاعات عريضة في المجتمع، إذ نرى أن الفكر لا جدوى له، بل هو سبب كثير من البلاء، وقرين للأحزان والأشجان، إن الواقع المادي الصرف يلفظ الفكر وأهله ويحاصرهم، ويبحث عن مصلحته المادية فحسب.

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٢٥، ٢٦.

تقول أم صابرين، وهي تمثل منهج المنفعة، في حوارها مع زوجها عبد المتجلي: «الفكر هو سبب كل البلاوي.

- الفكر عندك يعني الهموم والأحزان»[١].

ويفسر عبد المتجلي، ما يعنيه الفكر من وجهة نظره، وهي وجهة نظر الكاتب فيما يبدو:

«الفكر فلسفات ومشاكل.. وبحث عن حلول لقضايا الفرد والمجتمع. كيف تتغلب على قوى البطش والطغيان؟ كيف نحرر المظلومين، ونحقق العدل بين الرعية؟ ولماذا لم نتقدم صناعياً وحضارياً؟ ولماذا تفيض أنهار الصحف، وأحاديث الكبار بالخداع والكذب؟ هذا بعض ما يعنيه الفكر..»[٢].

القضية إذاً تعني الحرية بمفهومها الشامل، ومواجهة قوى القهر، وإقامة العدل، والتقدم الحضاري، وهذه أمور لا تعني بالضرورة من يفكرون تفكيراً براجماتياً أو نفعياً مثل امرأة عبد المتجلي (أم صابرين).. ولكن عبد المتجلي الذي يمثل جيلاً يتشوق إلى الحرية والعدل والحضارة، لا يقبل بالمنهج النفعي أو التفكير البراجماتي، إنه يتطلع إلى

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١٨.
(٢) السابق، ١٩.

عالم أكثر رحابة واتساعاً وإنصافاً، ولذا قادته قدماه إلى عالم الظلم والظلام لاستكشاف جوانبه، والاصطلاء بناره، والوقوع تحت وطأة التعذيب الذي لا يرحم، والمعذبين الذين قُدَّت قلوبهم من صخر.

لذا تحفل الروايات بالحديث عن التعذيب والمعذبين والقمع والجلادين، وآثار ذلك على المجتمع، وبخاصة، الشباب..

لقد تعرض عبد المجيد للتعذيب، وتعرض أبو الفتوح الشرقاوي للتعذيب، وتعرض محمد حسب الله وأبو المجد شاهين وأهالي قرية الربايعة للتعذيب، وأفاضت الروايات في تصوير بشاعة التعذيب، ووحشية المعذِّبين، والتُّهم الملفقة التي أُجْبِر الضحايا على الاعتراف بها، ويكفينا هنا أن نقرأ ما ذكره الراوي عن تعذيب «الرجل الصالح» - أبو المجد شاهين - ذلك الفلاح الطيب الذي لا دخل له بالسياسة ولا الأحزاب، وأُخذ من الدار إلى النار، كما يقال.

«كان أبو المجد متألماً لما يجري، لم يخطر على باله شيء من هذا قط قبل ذلك، ولم يتصور أن وراء الأسوار وحوشاً بشرية تتصف بهذا القدر من القسوة والحيوانية والمعصية لله. كان يسمع أطرافاً من أحاديث حول معاملة السجناء والمعتقلين والسياسيين، لكنه كان يعتبر ذلك أموراً كالتي تحدث في دوار العمدة، أو نقطة الشرطة، وما طاف

بخياله قط أن يكون للقمع زبانية مجردون من الضمير والدين، وأنهم تمرسوا على مثل هذه الفنون الوحشية»[١].

ولأن التعذيب فاق كل تصور، فإن نتائجه أثمرت التطرف، وأورثت الضغائن، وشجعت الثارات التي قد يذهب ضحيتها أبرياء، وها هو عبد المتجلي يتحدث عن التعذيب والسجن، فيقول: «هنا المدرسة التي يمكن أن يتعلم فيها الإنسان التطرف على أصوله إذا كان للتطرف أصول.. أتمنى لو أن معي مثقاباً كهربائياً (شنيور) لأغرزه في عيونهم وآذانهم وأمخاخهم، ثم أجلس لآراهم يتعذبون..»، ويعلل ذلك بما صنعوه معه «لقد وضعوا عصاة في دبري»[٢].

وإذا كان التعذيب هو مصنع التطرف الأصلي، فإن الروايات تحمل تفسيرات أخرى للتطرف، منها ذلك الانقلاب الاجتماعي الذي جرى للقرية المصرية شكلاً وضموناً، ومنها انتشار التطرف الانحلالي، وترك الحكومة الحبل على الغارب باسم الحرية الشخصية في الوقت الذي تضيق فيه الخناق على دعاة الإسلام.

---

(١) ملكة العنب. ٦٧.

(٢) اعترافات عبد المتجلي، ١٢٧.

وإقدامها على تزييف الانتخابات بصورة وقحة علنية، وهيمنة الرشوة والوساطات في قضاء الحاجات مما ينذر بكوارث اجتماعية وسياسية لا يعلم مداها إلا الله، لهذا تضاعفت أعداد الشباب المنضمين إلى التنظيمات الإسلامية حيث عدوا أنفسهم حُراساً للقيم والمبادئ الدينية...[١].

وإذا كان القمع الذي يُمارس ضد الأفراد، ويصل بهم إلى التعذيب داخل السجون، يؤدي إلى التطرف والعنف، فإن القمع ضد المجتمع كله ينذر بخطر الكوارث التي تهدد بانهياره فضلاً عن تخلفه، ويجد القارئ في رواية «ملكة العنب» مقارنة بين القمع قديماً، والقمع حديثاً، فالناي قبل خمس وأربعين عاماً، يذكرون «الهجّانة» الذين جاؤوا إبلهم ومنعوا الناس من التجول، وكانوا يضربون المخالفين بالسياط.. حدث ذلك عندما ثار الناس على طغيان ملاك الأراضي، أما الآن فإن القمع أصبح فناً له أصوله وضابطه، ويعتمد على القنابل الدخانية، والعصى الكهربائية، والمسجلات التي يمسكها العسكر ويتحدثون فيها، والتلفزيون الذي يقوم بالتصوير![٢].

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١٢٤.
(٢) ملكة العنب، ٤٤/٤٣.

تبقى قضية الحرية بإيقاعها المختلفة، على مستوى الأفراد ومستوى المجتمع، القضية الأولى التي تشغل روايات نجيب الكيلاني، حيث تصبح التفاصيل التي يحشدها نفحات متقة، في إطار نشيد عام، هو نشيد الحرية، ويصبح الموضوع الروائي الأساس هو «جمرة الحرية» بلظاها وضوئها. ولهيبها ونورها ورمادها ومصيرها.

وإذا كانت الحرية أو جمرتها هي الموضوع الروائي الأساس، فإنه يمكن القول إن الفساد - بمعناه الشامل - هو الموضوع الروائي الفرع، وإن بدا في كثير من الأحيان أنه المهيمن على سطور الروايات، ولكنه في حقيقة الأمر يُعدّ الوجه الآخر لقضية الحرية، فانتفاء الحرية يعني المزيد من الخلل والأخطاء والعفن، وهو ما يُطلق عليه الفساد بمعناه الشامل.

إن الفساد لا ينمو ولا يترعرع إلا في بيئة فقدت الروح، وأخلدت إلى الأرض - المادة - وصار المال فيها هو المقياس أو المعيار اجتماعياً وسياسياً:

«قالت أم صابرين بعد تناول العشاء:

- أتعلم ما هي مشكلتك؟.

- بالتأكيد.. إن القضية هي أنني لا أستطيع التأقلم

مع هذا العالم الفاسد.. ولا.. قاطعته، وإشراقه حبّ متألقة تصبغ وجنتيها الشهيتين:

- مشكلتك المال.

- هذه فلسفة السقوط.

تمتمت دون أن تفهم معنى بعض كلماته:

- بل النجاح..

وبعد تحليل لمعنى النجاح والسقوط في مفهوم أم صابرين - زوج عبد المتجلي - تخاطبه:

● أقول بصراحة: المال هو القوة.. لو كنت غنياً يا عبد المتجلي لدانت لك الرقاب، ولا نحنى لك العمدة نفسه احتراماً وإكباراً.. وشيخ الجامع يا عبد المتجلي يروي عن الرسول أن تسعة أعشار الربح في التجارة..

هزّ عبد المتجلي رأسه مفكراً وقال:

- أنت مثل عامة الناس في هذا الزمان»[1].

«عامة الناس» إذاً هي محور المعاناة عند عبد المتجلي. لقد أخلدوا إلى الأرض ومنهم زوجته التي ترى أن المال هو

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٢٧/٢٦.

القوة.. الذي يجعل الرقاب تنحني وتخضع، ولو كانت رقبة أكبر رأس، وهو العمدة! وفي سبيل المال انتشر الفساد وعمّ، وأخذ صوراً متعددة، منها ما هو معتاد مألوف، ومنها ما هو طارئ غريب.

من حوار بين عمدة الربايعة والشيخ محمد حسب الله إمام المسجد نقرأ عن المال والفساد،.. لكن الناس من هذا الزمان قد جُنُّو بحب المال، وهم على استعداد لأن يلوثوا الشرفاء، ويسفكوا الدماء للحفاظ على مكتسباتهم... العالم كله هكذا.. لعنة الله على الربايعة وأهل الربايعة.. أتدري يا بني ما الذي أفسد هذه القرية التي كانت آمنة؟.

- ماذا؟.

- عد على أصابعك:

التلفزيون.. والسفر للعمل بالخارج.. وفساد الإدارة.. والبضائع المستوردة وانهيار التعليم.. والبعد عن شرع الله... والرشوة.. تلك هي الأوبئة السبعة»[1].

الأوبئة السبعة منها ما هو معتاد ومنها ما هو طارئ، وكلها كما عدّها عمدة الربايعة والشيخ محمد، سبب المأساة

---

(١) ملكة العنب، ١٦.

التي يعيشها الناس، وإن بدا بعضها مصدر نفع وفائدة مثل التلفزيون والسفر للخارج، فالتلفزيون يمكن أن يتحول إلى أداة تثقيف وتوعية ومعرفة، والسفر للعمل بالخارج يبدو لأول وهلة مصدراً للثراء وتوفير الحاجات تحقق الاكتفاء وتمنع من الاحتياج، ولكن التلفزيون تحول إلى أداة دعاية للكذب ودعوات الباطل وغسيل المخ والقيم المادية الرخيصة، أما السفر للعمل بالخارج، فقد مزّق الأسر وأفسد العلاقات الاجتماعية وترك الأبناء والزوجات بلا تربية ولا رعاية. وكان الحصار في كل الأحوال قبض الريح. إن الأوبئة السبعة قد حولت الناس إلى عبيد للمال وحده، يملأون به البطون ويشبعون الرغبات الحسية، ولم يعد هنالك مجال للقيم الروحية السامية وفي مقدمتها «الحرية» بمعناها الرحيب، وهو ما أتاح للفاسدين والمفسدين أن يزدادوا في الأرض فساداً وغواية وضلالة.. بحيث صارت الأوبئة السبعة أمراً اعتيادياً، فالرشوة مثلاً صارت مألوفة ويمارسها الكبار والصغار، وقضاء المصالح اليومية وغيرها لا يتم إلا بالدفع.

«في الرخصة تدفع.. وفي إدخال الماء تدفع.. وعند مدّ أسلاك الكهرباء تدفع.. وكل جزار على شاطئ الترعة يقدم له (أي لرئيس المجلس القروي) كيلو لحم أسبوعياً..».. بل إن رئيس مجلس القرية يقول تعليقاً على

رفض «أبو المجد شاهين» دفع الرشوة كي يصل تيار الكهرباء وماسورة المياه إلى بيته: «لن يدخل النور بيت أبو المجد» لأن الأحمال الكهربائية لا تكفي، ولن يشرب قطرة ماء من شبكة مياه الحكومة.. إلا إذا دفع.. ليس عندي فرق بين صالح وطالح»[١].

إن القضية بالنسبة لرئيس مجلس القرية تعدّ بسيطة ومحدودة، ولكن هناك كباراً يحصلون على الملايين دون أن يتدربو في مدارس النشل، لديهم مؤهلات، كدكتوراه وماجستير ودبلومات عليا في مختلف الفنون والعلوم، وهم يستخدمون هذا العلم الحديث في الاستثمار الحرام، وامتصاص الدماء، واستنزاف التائهين والمقهورين والجهلاء[٢].

إن الرشوة وبقية مظاهر الفساد صار لها مسميات جديدة، أطلقها المفسدون بقصد التخفيف من دلالة الأسماء الأصلية، وخداع البسطاء والسذج، إن تسمية الرذائل بمسميات جديدة محاولة للقفز على مواصفات المجتمع وأخلاقه فضلاً عن دينه.. إن الرشوة صار اسمها عمولة أو مصاريف إدارية مقابل التسهيلات التي يحظى

---

(١) السابق، ٦٩.

(٢) امرأة عبد المتجلي، ٤٦.

بها المستفيد. ولم يكن لدى الإدارة والعمدة مثلاً مانع من تقبل هذه العمولة، وخاصة أن أم صابرين - امرأة عبد المتجلي - سخية اليد، وإذا أعطت لخفير أو كبير أو مدير بيمناها، لم تعرف يسراها عن ذلك شيئاً، وهذا ما جعل عبد المتجلي يصاب بالذهول

عندما عرف أن الكذب له ألف اسم واسم والرشوة تتزين بأردية شتى مختلفة الألوان، والظلم اسمه الضبط والربط والأمن الاجتماعي، ومجالس الاستغلال والنصب يطلقون عليها مجالس القرى، والإفساد الزراعي يدعى بالإصلاح الزراعي...

«صرخ عبد المتجلي بأعلى صوته ذات ليلة، وقال:

- أم صابرين أيتها الملعونة..

أقبلت مسرعة وهي تلهث، يتقدمها بطنها المتضخم، فقد أصبحت حاملاً في شهرها السادس وقالت:

- هل صحيح ما سمعت؟؟.

- كيف لا تكونين ملعونة.. وأنت تحلين ما حرم الله.. الراشي والمرتشي في النار.. والمحتكرون و،المحتكرات في النار..

قالت بحزم..

- كفى.. وكن عادلاً..[1].

والفساد في روايات نجيب الكيلاني متجذر يمتدُّ إلى أعماق الماضي، وتجذره - فيما يبدو - هو سرّ قوته، في مواجهة دعوات الإصلاح وقهرها والتشهير بها، وتحويل الدعاة إلى متهمين دائماً.. ففي رواية «قضية أبو الفتوح الشرقاوي» التي تدور في زمن الحرب العالمية الثانية، تجسيد حيّ للفساد المتوحش الذي صنعته أطراف عديدة، فقد كان هناك تهريب للسلاح من المعسكرات البريطانية يقوم به بعض الرسميين، والسوق السوداء تخضع لسيطرتهم، الحشيش مثلما يقال، على قفا من يشيل»، بل ظهرت مخدرات ومنشطات جديدة أشهره «البانجو» والقطعة منه تباع بقرشين، والناس كانوا يبيعونه في الشوارع والحارات دون حرج - والانجليز هم الذين أتوا به، والسوق السوداء ضرورة معيشية لأن التموين الرسمي لا يكفي، ولا بد أن يبحث الناس عن احتياجاتهم بأي ثمن.. حتى قال الحاج يونس عبده:

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١٣/١٢.

«قريتنا هي القرية الظالم أهلها.. وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[١].

إن صورة البلاد في تلك الفترة هي صورة موازية للأوضاع في زماننا مع اختلاف الشخوص والأبطال، فهناك أمور كثيرة تجري في الخفاء، القضايا المهمة تتوارى، وتطفو على السطح أحداث ثانوية أو فرعية لا قيمة لها، وينشغل الناس بأمور تافهة، ويبقى الحال على ما هو عليه.. والمستقبل غامض لا يعرف أحد ماذا سيحدث غداً، والغلاء

كغول، ينشب أظفاره، وتجار السوق السوداء تنتفخ كروشهم وجيوبهم، والفلاحون «أرهقهم الرجيم» الإجباري ولهذا فهم لا يشكون من ارتفاع الكوليسترول في الدم ولا الضغط ولا الذبحة، فقط الأنيميا.. فقر الدم، البلهارسيا...[٢].

إن الكاتب - في رأيي - قد لجأ إلى فترة الحرب العالمية الثانية، ليجد فرصة أرحب في رسم الصورة الموازية التي يستشعرها القارئ دون كثير عناء، حين يقارن الوضع

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٦٨.
(١) السابق، ٩٣.

آنئذ والوضع الراهن، إنها على كل حال، صورة تعسة للوضع الفاسد المتردي الذي آلت إليه مصر في هذه الحقبة التاريخية السوداء، وأنها تجسيد لضياع هيبة القانون والحريات العامة، كما أنها كشفت المستور عن الأوضاع المهترئة للطبقات التي تزعم أنها راقية ومتحضرة وشريفة، كما كتب أحد الكتاب الحزبيين من منظور عام[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الفساد العام، في القديم والحديث، له صلة حميمة وعلاقة وثيقة بمواجهة دعوات الإصلاح وقهر الدعاة المصلحين، فعندما ذهب عبد المتجلي القصاص، ليبحث عن الونش المسروق، وقع في قبضة جهات الأمن التي أصلته نار التعذيب الوحشي، وقد أراد أهل القرية الاجتماع على ما جرى لابنهم، فواجههم العمدة الفاسد رجاله، وأصدر إليهم أمراً بالعودة إلى بيوتهم لأن التجمعات والتظاهرات ممنوعة طبقاً لقانون لطوارئ.. والمخالف مصيره الاعتقال، ومن حق وزير الداخلية رفض الإفراج عن المعتقلين.. وقد قام رجال العمدة (الخفراء وشيخهم) بضرب الأهالي عدا الإمام والشيخ إسماعيل..

ولكن وفداً من الأهالي يذهب فيما بعد إلى عاصمة المحافظة ويقابل المحافظ، ويذهلون عندما يخبرهم أنه لا

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٨٤.

يعرف شيئاً عن المدعو «عبد المتجلي القصاص» ولا يهمه أن يعرف![١].

وإذا كان المحافظ، بوصفة مسؤولاً رسمياً أعلى، يبدو سلبياً، وغير معني بقضية خطيرة، مثل قضية عبد المتجلي، فإن المسؤول الرسمي المباشر، يأخذ موقفاً إيجابياً لصالح السلطة، وأكثر سلبية تجاه الناس، فقد اجتمع رئيس مجلس القرية مع المجلس وقرر إرسال برقيات استنكار وشجب، وبراءة من عبد المتجلي، إلى المسؤولين، ونشر تأييد من المجلس للحكومة ورجال الأمن في الصحف. وعندما اقترح عضو في المجلس توفير ثمن البرقيات والتأييد لإصلاح ماسورة المياه المكسورة في القرية، رد رئيس المجلس.

- أنا مصرّ، بل وأعتبره واجباً وطنياً مقدساً.

ثم يشعل سيجاراً، ويقول:

«وعليكم أن تشجعوا أهل القرية خاصة النظار والمدرسين وذوي الحيثية على إرسال برقيات مماثلة حتى نزيل ما علق باسم قريتنا من أوساخ...[٢].

---

(١) اعترافات عبد المتجلي ١٠٨/١٠٩.
(٢) السابق، ١٠٦.

والمفارقة هنا لا تحتاج إلى بيان، فداعية الإصلاح «عبد المتجلي»، ومؤيدوه من أهل القرية، صاروا «أوساخاً»... أما العمدة ورجاله، ورئيس المجلس وأعضاؤه، فهم ممثلوا الطهارة والنقاء مع ما يمارسونه من كذب وتزييف ونفاق وإفساد وانحلال وقبول للرشوة.. الخ.

إن تجذر الفساد وفقدان الحرية. واختلال المجتمع، يهيئ لحالة من الإحباط والسلبية التي تعم جموع الناس، وتدفع الكثيرين دفعاً إلى اعتزال المجتمع مخافة الاحتكاك بالفاسدين أو الظالمين... أو مجاراة الأوضاع الفاسدة والتلظي بنيرانها في النهاية. وغالباً ما يجنح إلى الاعتزال والسلبية أولئك الذين يتوقون إلى إشاعة الخير والفضيلة والمودة بين أفراد المجتمع، ولكنهم لا يستطيعون بإمكاناتهم الروحية والنفسية أن يخوضوا عباب الصراع لذا يؤثرون الانزواء والعزلة:

«عندما تغيب شمس العدالة، يتفشى الحقد، وتنمو الأكاذيب، ويسبح الناس في بحر الظلمات.. ومن يفقد الأمن يعش في الجحيم، ألا وإن الإيمان هو جنة الله على الأرض... وإذا شاعت الفتنة فالزم بيتك يا مؤمن.. ولتبك على خطيئتك.. وإذا لم تبكوا فتباكوا..»[1].

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٦٦.

وقد يتجاوز الأمر العزلة أو الإنزواء إلى الهجرة، فقد فكر عبد المتجلي جدياً في السفر إلى الخارج هرباً من الواقع القاسي، وهي ظاهرة لم تكن مألوفة في المجتمع، ولكن الناس اضطروا إليها اضطراراً بسبب الاختلال السائد والفساد المتفشي والقهر الظلم.. يبد أن المؤلف لم يعالج هذه الظاهرة باستفاضة، وإن كان قد أشار إلى مكاتب العمالة والنصابين والكذابين وانعدام الثقة الذي يملأ أجواء المدينة، نتيجة استغلال الرغبة لدى الكثير في الهجرة والعمل بالخارج[1].

وإذا كان الانزواء والعزلة والهجرة حلولاً سلبية يلجأ إليها الناس عندما تضيق بهم السبل للعيش بطريقة كريمة دون أن يفقدوا حريتهم أو يصيبهم رذاذ الفساد فإن نجيب الكيلاني حريص على أن يحقق نوعاً من التوازن في مواجهة الإحباط والسلبية، وذلك بأن يجعل أبطاله يقاومون الفساد والقهر، ويستمرون في المقاومة، مع ما يبدو أحياناً من انهزامهم أو دفعهم ثمناً باهظاً لمواقفهم، فبعدها جرى لعبد المتجلي من محنة على يد أجهزة الأمن،

---

(١) حدثني الكاتب أنه بصدد كتابة جزء ثالث لروايته (اعترافات عبد المتجلي) و (امرأة عبد المتجلي) بعنوان (هجرة عبد المتجلي)، وعلمت أنه سيجعل هجرته إلى الداخل ناحية الجنوب، وليس إلى البلاد العربية والأجنبية، وفي هذه الهجرة تظهر قضايا وموضوعات روائية أخرى تخص المكان وما يتعلق به.

يعود إلى وظيفته بمجلس القرية، ويبدأ فترة من الكمون والاسترخاء، يستعيد فيها أمنه واستقراره.. وإذا كان السؤال المطروح هو: هل انهزم عبد المتجلي فعلاً؟ فإن القضية تحتاج إلى دراسة وتمحيص. فهو يعتقد أن الواجب لا بد أن يقوم به سواء تحقق النجاح أو حَلّ الفشل. هذا الالتزام في حد ذاته انتصار على الضعف[1].

ثمة قضايا أخرى طرأت على المجتمع، ولكنها ترتبط بصورة وأخرى بمسألة الحرية أو قضية الفساد، وقد عالجها المؤلف في مواضع مختلفة.. وقد أشرنا إلى بعضها من قبل فهناك مثلاً قضية تجريف الأرض الزراعية، وبيع ترابها بثمن غال ليصنع منه الطوب الأحمر الذي يستخدم في البناء، ويترتب عليه عدم صلاحية الأرض للزراعة... وقد نجح بطله «عبد المتجلي» في مواجهتها، مع ما لاقاه من عناء وصل إلى حدّ ضربه «بالفلقة» على رجليه في قسم الشرطة. وهناك قضية زراعة العنب بدلاً من المحاصيل الزراعية، وقد عرضها المؤلف باستفاضة، ولم يقدم لها حلاً واضحاً، ولعله وجد في مجرد العرض تنبيهاً إلى خطورتها كي يتلافاها الناس فيما بعد، وإن توقف عند مسألة إخراج زكاة العنب حقاً مشروعاً للفقراء.. ويمكن

---

(١) امرأة عبد المتجلي،٥.

عدّ هاتين القضيتين من نتائج الفساد المستشري الذي غيّر النفوس والقيم، فدفع البعض إلى البحث عن الكسب السريع على حساب المصلحة العامة أو ما يسمى المصالح الاستراتيجية للأمة، فتبوير الأرض الزراعية في الوقت الذي يدعو فيه أهل الاقتصاد وغيرهم إلى التوسع في استصلاح الصحراء وإعدادها للزراعة لتستوعب الزيادة السكانية، وتفتح مجالات جديدة للرزق، عملٌ ضد الدين والأخلاق والقانون والوطن جميعاً. أما زراعة العنب والفواكهة السريعة العائد على حساب المحاصيل الزراعية التي تكون الغذاء اليومي الرئيسي للناس، فهو دعوة إلى استمرار استيراد القمح والذرة وغيرها من الدول الكبرى، مما يترتب عليه التبعية لهذه الدول، وإعطائها الفرصة للتحكم المستمر في مصيرنا وحركتنا واستقلالنا.

بيد أن الكتاب عالج ظاهرة مهمة من ظواهر الهجرة إلى الدول العربية، وهي قتل المصريين في الخارج وإعادتهم إلى البلاد جثثاً هامدة مشوهة، ووقوف السلطة من هذه الظاهرة موقفاً سلبياً غريباً لا يتفق مع واجبها في الحرص على كرامة مواطنيها وأبنائها كما تفعل دول العالم المختلفة لرعاية مواطنيها في الخارج.. بل إن المفارقة تكمن في أن السلطة عاقبت الناس في «الربايعة» عندما أعلنوا سخطهم على النظام العراقي وحاكمه بسبب قتل

مواطنيهم، وقامت باعتقال عدد كبير منهم وعذبتهم في مبنى جهاز الأمن، ولفقت لهم تهمة تكوين تنظيم ديني متطرف يسعى لقلب الحكم (!)، ولم تطلق سراحهم إلا بعد أن قام العراق بغزو الكويت، وتغيرت طبيعة العلاقات بين السلطة ونظام بغداد!.

وقد أشار الكاتب إلى عملية الغزو العراقي في سياق معالجته لمسألة قتل المصريين الذين ذهبوا للبناء والتعمير والمصانع والمتاجر ينهبها المغول ويدمرونها وهناك، عذارى وأيامى ويتامى يستغيثون، أليس هذا من علامات الساعة؟»[1].

إن الموضوع الروائي في روايات نجيب الكيلاني، حافل بالوقائع الجزئية والظواهر الجديدة التي طرأت على المجتمع، لكنه يربطها بمهارة واقتدار بقضيته الأساس وهي الحرية المفقودة، أو وجهها الآخر وهو الفساد العام، وكلاهما، جعل الإنسان/ الفرد، أو المجتمع/ الشعب. كياناً هزيلاً لا قيمة له، ولا كرامة، سواء في داخل البلاد أو خارجها، وهو ما حوّله إلى «عَبْدٍ» للمادة (المال/ المتعة) تحكمه أو تستعبده فضاعت القيم، وعمّ الفساد، وهذا هو سرّ التخلف الشنيع الذي تعانيه الأمة في كافة المجالات،

---

(١) ملكة العنب، ١١٠ وما بعدها.

فالعبيد لا يستطيعون بناء الأوطان، ولا يقدرون على منافسة الشعوب الحرة...

ويلاحظ أن الموضوع الروائي لدى نجيب الكيلاني أخذ مساراً واضحاً ومحدداً بصفة عامة، دون أن يحدث له التواء أو غموض أو قصور، لأن الرؤية كانت واضحة ومحددة، وهي الرؤية الإسلامية في بساطتها وعفويتها، ودقتها أيضاً.. فقد كان يرصد الظاهرة، ثم يتعمق أسبابها الحقيقية في صدق موضوعي وفني، يدخله في دائرة المبادرة الشجاعة، التي يفتقدها الكثيرون ممن يلجأون إلى اللف والدوران والغمغمة دون أن يبين قصدهم أو تتضح غايتهم أو يظهر هدفهم.

إن يواجه بالفن - في كل الأحوال - قضايا مجتمعه، مواجهة صريحة، قد لا يستريح إليها البعض، ولكنها تُشرِّح هذه القضايا، مهما كانت عملية التشريح قاسية، لنأخذ منها دليلاً يقودنا إلى عملية الإصلاح والبناء، وفي الوقت ذاته يمتعنا بشخوص حيّة وأحداث متميزة تظل في ذاكرتنا إلى أمد بعيد.